مـــدخل

لو قيض لأحدنا أن يلقي من الكوكب سيريوس الذي يفوق الشمس سطوعاً وتلألأ ، نظرة عابرة على سطح كرتنا الأرضية في اواخر القرن الخامس عشر ، لأخذته الحيرة واضطرب لبه لما رأى من شتات الجماعات المتمدينة ولما رسفت فيه من عزلة وانقطاع .

هنالك حضارات لم تشعر قط بوجود غيرها مما قام من امثالها . فالمجتمعات الاميركية التي قام معظمها الى الساحل المطل على المحيط الهادي ، كانت لعمري مجتمعات لم يعرف عنها العالم القديم شيئاً قط ، هذا العالم الذي تألفت اقسامه من اوروبا وآسيا وافريقيا . ولم تتصل بأي من هذه الجماعات عن اخواتها سوى معلومات متقطعة ، غامضة لا تشفي غليلاً ، وهذه الحضارات المتباينة عاشت لذاتها ، ربطت بينها ، فيما لو تم لها شيء من ذلك علاقات سطحية ، فلا تعرف الواحدة عن الاخرى ، اذا مـــا عرفت ، شيئاً يذكر او كبير أمر . وقد كتب لاوروبا ان توحد بين اعضاء الاسرة البشرية بعد ان تم لها ما تم من منهجية آسرة ومعلومات موسوعية في الصميم .

فقد تكشفت اوروبا في اواخر القرن الخامس عشر عن تفوق تقني بارز في نواح عديدة من مراكز القيادة ، وتسامت عالياً لتطل من عل على اطراف كرتنا الارضية ، حتى على الصين في الشرق الاقصى ، وعلى هذا القسم من آسيا المعرّض للأمطـار الموسمية . فقد تم للاوروبيين في اواخر القرن الخامس عشر زخم تقني عـــارم ارتسمت تباشيره منذ القرن العاشر وتبلورت كشوفاً مثيرة وتطبيقاً لذرائع ووسائل عرفتها اوروبا من قبل . فقد انتشرت في القرن الخامس عشر المطاحن المائية وطريقة جديدة لكدن الحصان في رقبته ، والثور بعـــد ان استعيض عن قرونه بالنير وشهد الانسان في القرن الثالث عشر والاجيال اللاحقة ضغطاً متزايداً من جراء نماء الناس وتزايدهم ، بعد ان ارتفع عددهم الى اربعة اضعاف مـــا كانوا عليه في السنة الألف ، كذلك تم اختراع رئيسي في فن تسيير السفن وذلك باعتماد الدفة المحورية العائقة بمفصلة ركزت في الدعامة الطولانية الوسطى للسفينة ، وانتشر استعمال الابرة المغنطيسية بعد ان اخذوها من الصين ، وعولوا ، اكثر فاكثر ، منـــذ اواخر القرن الثالث عشر ، على نظام السفتجة اساساً

والاعتماد المالي ، هذا النظام الذي اخذت به ايطاليا أول من اخذت وجرت على اعتماده اساساً في معاملاتها : حواضر البلاد الكبرى وعواصمها الاقتصادية كجنوى وفلورنسا والبندقية مما امن تعميم هذا النهج ونشره في شبه الجزيرة الايبيرية وفرنسا وانكلترا والمانيا الجنوبية والمانيا الرينانية . فكان من بعض نتائجه ان ادى الى تحسين نظام التبادل الدولي في حقل التجارة وتكوين نظام رأسمالي ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالسفتجة وارتكز عليها . وفي اواخر القرن الرابع عشر ومطلع القرن الخامس عشر اطلت علينا في هذه الحقبة نهضة صناعية اخذت تتطور وتيداً في إيطاليا الشمالية والمانيا الرينانية ومقاطعة الفلاندر اعتمدت اساساً في عداد ما اعتمدت اليه وعولت عليه من ذرائع تقنية ، المنافخ المائية في الافران الصناعية ، وذراع الدافعة في مقبض المحرك الآلي والتوصل ، في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، الى بناء سفينة تصلح للأسفار والرحلات البحرية الطويلة عبر المحيطات هي الكرافيل ، والتمويل ، اكثر فاكثر ، على الاسطرلاب ، المعروف الاستعمال من قبل ، وعلى ربع محيط الدائرة والعمليات الحسابية التي تساعد على تحديد ارتفاع الشمس عند الهاجرة للوصول الى تحديد نقطة العرض ، وغير ذلك من التحسينات الآلية التي ادخلت تباعاً على الحراث والتقنية التي اعتمد عليها اكثر فاكثر في تصنيع الريف والصناعة اليدوية.

وقد تفرد الاوروبيون دون سواهم بالقدرة على عبور المحيطات واجتيازها في اواخر القرن الخامس عشر فانشأوا لهم خارج اوروبا ، منذ مطلع القرن السادس عشر ، مناطق حضارية خاصة بهم وحضارة اوقيانية لم تلبث ان أصبحت نقطة تلاقي وتصادم وتفاعل وانفعال ، بين عوامل ومؤثرات حضارية جاءت من اوروبا واميركا وافريقيا وآسيا. وكان من اتساع هذا اللقاء وضخامة تفاعلاته ان أطاح بالمدنيات الاميركية ، وادخل تغييرات جذرية على الحضارات الافريقية ، وعاد بالرفاه والغنى على الحضارة الاوروبية وزادها يقظة ووعياً كما ادى ، من جهة اخرى ، الى بعث النشاط في الحضارات الآسيوية ، اقله في بعض مظاهرها المادية . وهكذا اصبح في الوسع ان نتكلم ، عن « العوالم » التي اقامها الانسان وعن هذه الجالات الاقتصادية والمراكز الحضارية التي كونت ، الى حد ما ، « عوالم » اصبح من ان تستوعب العالم ، « عالم » البحر المتوسط ، و « عالم » الصين . فمنذ الآن ، ومع انه لا يزال يوجد في العالم ، مناطق منعزلة كجزر المحيط الهادي والمناطق القطبية ، والاصقاع الواقعة في قلب افريقيا ، فقد قام الى جانب العالم الاسباني الذي جعل من المحيط الاطلسي محوراً له فضم شطراً كبيراً من اميركا واشتمل ، في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، عبر المحيط الهادي ، ارخبيل الفيليبين ، ليبلغ مشارف اليابان والصين وماليزيا ، ثم قام العالم البرتغالي الذي اتخذ محوراً له افريقيا والهند ، وتحكم بمداخل بحر الهند ومخارجه ، وسيطر على جزر الافاويه والطيب . وهكذا اصبح في مقدورنا ان نعتبر العالم الارضي ، واقعاً إنسانياً متحيزاً ، وان

تاريخ اوروبا وتاريخ الكرة الارضيـــة كلها مرتبطان إلى حد بعيد الواحد بمصير الآخر .

وستلعب اوروبا في العالم كله الدور الذي تلعبه كل كمية سببية متفاعلة . ففي قلبها وقـــع الحادث الفصل في تاريخ الاجيال الطالعة ، الا وهو نشأة العلم الحديث ، علم اوروبا بالذات ، عند ما تم لغاليليو ، عام ١٦٠٤ ، اكتشاف قاموس الجاذبية ، اول قانون الحركة ، باب العلم الحديث ومحرابه ، كما وضع ، في الوقت ذاته ، اسس الفيزياء الرياضي ومبـــادىء الاساسية . وبذلك اثبت ان افلاطون كان على حق عندما راح يؤكد ، بعكس ارسطو ، ان الواقع المتحيز في الزمان والمكان يخضع للرياضيات ومقاييسها ، وان تحت الظواهر الحسية يكمن نظام خفي يخضع للفكر الرياضي ، وان كل شيء يتكشف عن معادلات هندسية وعن حركات في غائية الانضباط والدقة ، وان كل شيء هو موضوع قابل للقياس والعد والوزن ، وبذلك تم للانسان السيطرة على الطبيعة والتحكم بها الى ما لا حد له . ان هذا التحول بطرأ على الذهن البشري ، والانتقال الذي مكن له بصورة قطعيـــة من فيزياء المناقبيـــة الى الفيزياء الرياضية والانتقال من الذهنية النوعية الى الذهنية الكمية ، ومن التقريبي ، الى الدقـــة والتمام، كل هذا ومـــا اليه يكوّن في تاريخ الانسانية ، حدثاً له من الوقع الداوي والتأثير العميق ما يوازي او يعادل تغييراً في الجنس أو تحولاً جذرياً في الذهن . فنحن امام اعظم تحول فكري عرفته الانسانية عبر تاريخها المديد . فكل شيء تغير واصبح غير ما هو ، فيما بعد . فمن هـــذا التحول خرج مروراً بمؤسسي الميكانيكا ورواداها الكبار امثال : ديـــكارت ونيوتن وفلاسفة عصر الأنوار كأوغست كونت ودارون وكارل ماركس وكوري وانشتاين العالم الحديث ، عالمنا هذا المعاصر الذي نعيش ، بعد ان تهيأت اسباب هذه الثورة الجذرية الكبرى التي خبرها القرن السابع عشر منـذ عهد بعيد بعد ان ارتدت مظاهر شتى ومرت بمراحل عديدة . فآثار هـــذه الذهنية الكمية والاهتمام بالتمييز جيداً بين ما هو للمادة وبين ما هو للروح ، والرفض بعناد ، ان نضفي على المادة ، ماليس من صفاتها ولا من خصائصها ، والرفض باعتباره واقعياً ما يناقض المحسوسات المرقمة التي يمكن تطبيقها على المادة الخاضعة للوزن والقياس والكيل ، كل هذا وما اليه مما نصت عليه مخلفات القرن السادس عشر الفكرية فكان اساساً لهذ الجدل العنيف الذي أثارته هـــذه الاهاجي البروتستانتية التي قذفوا بها العقائد الكاثوليكية التي تعلم الوجود الحسي لجسد السيد المسيح تحت اعراض الخبز والخمر بعد استحالتهما ، هذه الاهاجي التي هيأت ومهدت السبيل امام الفلسفة الديكارتية . ومع هذا ، قد تكون الجذور ابعد من ذلك بكثير . هل يجوز ان نرد التحول الفكري الى هـــذا الازدهار الذي عرفته التقنية التي تفترض ، لتعمل ذهناً ايجابيـــاً وعقلانياً خاضعاً لمبدأ السببية الذاتية ، هذه التقنية التي قامت على نظام الاعتماد المالي والسفتجة ، هذا النظام الذي كان يفترض دوماً العد والحساب وتحويل كل شيء الى معـــادلات حسابية ، باستثناء تلك الذرائع التقنية التي تتعلق بالبناء والصناعة مما لا بد منه لتأمين نجاح اعمالهـــا على اساس من الاعمال الحسابية والهندسية ؟ ايه لعمري ، الى حد ما ، أقله كعامل إثارة واغراء للفضول العقلي . وها هو غاليليو نفسه يدعونا الى ذلك ، في مباحثه التي ظهرت عـــام ١٦٣٨ ،

اذ نراه يؤكد لنا بانه دفع دفعاً الى طرق هذه الموضوعات ودرسها بعـــد الذي طالعه ووقعت عليه نواظره في ترسانة البندقية ، وما شاهده فيها من الآلات والاجهزة الرافعة التي تحير الالباب والتي حاول ان ينفذ منها الى مكنونات اسرارها حتى والى ابعد من هذا ، الى ماجريات هذه الخصومة الابدية التي قامت بين اتباع الواقعية واتباع الفلسفة الاسميـــة والرجحان الوقتي الذي حققه الفلاسفة الاسميون ، في القرنين الرابع عشر والخامس عشر مع وليم اوكهام عندما استقر في خلدهم ان المعـاني العامة المجردة ليست سوى اسماء لأشياء خاصة . فلا يوجد في الحقيقـــة سوى الأشياء المفردة . اما المفاهيم العامة فلا وجود لها الا في الفكر بعد ان تتخذ صورها من المحسوسات والمشاعر. وهذا انما يعني ان المفاهيم العامة إنما هي اسماء او مسميات لا اكثر ولا أقل . فمعلوماتنا ، والحالة هـذه ، انما هي معلومات نسبية وان كل ما نستطيع ان نفهمه حق الفهم هو المظاهر الحسية عن طريق التجربة والاختبار. ومن هذا النقاش ، طلعت علينا مدرسة بازيس بهذه الآثار الرياضية والفيزيائية الرائعة ، هـــذه الآثار التي نحن مدينون كثيراً لواضعيها امثال جان بوريدان والبرت ده ساكس ونيقولا أوريسم الذي كاد يقع على القانون الذي وضعه غاليليو ، هذه المدرسة التي كانت آثارها منطلقاً للابحاث التي قام بها هذا العالم وبفضلهم جميعاً استطاع القرن السابع عشر الذي يؤلف نقطة انطلاق جديدة في التاريخ العام وعطفة حاسمة من عطفاته التاريخية ، ان يطلع على البشرية بعصر جديد وحياة جديدة .

وهذه الفردية التي ميزت اوروبا جاءت في آن واحد نتيجة لهذه الاكتشافات ولهذا التحول الذي عرفه الذهن البشري . فقد جاءت شرطاً لها ونتيجة ، واخذت تتطور وتنمو منذ ذلك الحين ، وسجلت قطيعة او تباعداً من قبل رجل او بضعة رجال ، لهذه الاعراف التي سار عليها الناس او لعادات ومراسم اعتمدوها او اعتمدها مجتمع قائم بذاتـــه ، وهذا الاستقلال الذاتي يحققه الفرد ، لم يلبث ان عم اوروبا باجمعها . صحيح ان الانسان تمتع بحرية هي بكثير ، دون الحرية التي تمت لانسان القرن التاسع عشر . فهو لايزال مشدوداً الى وشائج الاسرة والروابط القبلية والمهنية والمجتمعية. ولكن ما عسى ان تكون هـذه الروابط اذا ما قيست بتلك القيود التي رسف فيها الانسان ، في الهند ، مثلاً ، في هذا النظام الطبقي الذي أرزح المجتمـع ، أو في الصين حيث يرى الانسان نفسه مشدوداً شداً الى روابط الاسرة والآباء او في اميركا حيث كان الفرد يرزح تحت ضاغوط الاعراف القبلية . وما عسى ان يكون امر هذه القيود المعيقة بازاء استحالة إدخال اي تغيير على هذه الاشكال الخانقة والمراسم الضيقة مما رسمه الجـدود او أقاموا له الحدود الذهنية ، اذا ما قارنا هذا كله بحرية القول والفكر التي ينعم بها اهل هذا العصر ؟ فاذا ما توفرت للبعض ظروف الإفلات او الهروب من حياة التجريد او التأمـل ، تحتم عليهم الانصهار مع المطلق والإعراض عن العـــالم الخارجي ومغرياته هذا العالم ذي المظاهر الخداعة الزائلة . وعلى عكس ذلك فالفردية الاوروبية ازدادت رسوخاً تحت تأثير عامـل المسيحية . فالثنائية، هذا المبدأ الاساسي الذي يطبع في الصميم الفكر المسيحي يضع ازاء الله اللامتناهي

السمو والكلي الكمال ، خليقته التي برأ وابدع ، لتبقى الى الابد ، متميزة عنه منفصلة تنعم في غبطة موصولة بمشاهدة كمالات الله . فهي روح امتازت بالفردية يتوجب خلاصها وتفادي ذهابها الى جهنم والدخول بها الى الفردوس ، حيث تنعم ، وجهاً لوجه بمشاهدة الله . فالمسيح بذل دمه وقاسى عذاب الصليب فداء لجميع البشر ولسان حاله يردد : « هذه النقطة من دمي بذلتها وجُدتُ بها لأجلك ». فحياة الانسان على هذه الفانية هي حوار موصول بينه وبين الله ، وهي صراع مستمر بينه وبين أركون الظلام . فالحقبة القائمة تنضح بالدين والتقوى ، وفيها بلغت مراسم الإبتهال الى الله وعبادته ، والتعاون معه ، والخضوع لمشيئته ، والاتصال به ، تمامها الاكمل وكمالها الأتم ، مع العلم ان بعضهم استطاع تحقيق مثل هذا الاتصال بالذات الالهية وانصهروا فيها بعد ان تطهروا من ادران المادة وشوائبها . وهذه الحركة التي انبعثت من العلماء الروحانيين ، اصحاب « التقية الحديثة » في القرن الرابع عشر امثال : رويزبروك وطولر ، واخوة الحياة المشتركة والكهنة القانونيين في وندشهايم ، جاءت تماماً ، وفاقاً لمراسم العبادة التي قال بها وعلم فريق من أولياء الله ، أمثال القديس اغناطيوس ده لوايولا والقديسة تريزيا دافيلا والقديس يوحنا ده لاصكروا والقديس فرنسيس السالزي وبابيرول *Bérule* والرهبان السلبوسيين والمدرسة الفرنسية في القرن السابع عشر. ففي مثل هذا المحيط من الزُهاد الهجع والمتصوفة ، المشبع بطاقات الفرد الهادف الى نجوى ربه يعمل فريق مختار امثال : كبلر وديكارت . كبلر هذا الذي تخيل اليه يوماً انه توصل بنعمة الله الى الكشف عن مقاصد الله في خلقه والأسباب الموجبة لعبادته عز وعلا ، في ما تبدى له من نواميس دوران الفلك ، وديكارت الذي اخذ على نفسه ان يرسي الدعائم الفلسفية التي تقوم عليها الحقائق الدينية ، ويخزي ، الى الابد ، الكفار والملاحدة والمعطلين . وفي مثل هذا الجو نفسه يندفع ، كالفارس الجاهد في حملة صليبية ، المناضل في سبيل ربه مرضاة لوجهه الكريم ، فاسكو ده غاما وفرناند كوريس . فقبل ان يقلع فاسكو بحراً في رحلة طويلة ، نراه يقضي ليله الطويل ضارعاً الى الله ، متوسلاً اليه في كنيسة السيدة ، في بلدة بيت لحم الواقعة على ضفاف نهر التاجه ، ومبتهلاً اليه تسديد خطاه . وكنتيجة للاعتقاد باله قيوم ، متميز كلياً عن هذا العالم الذي ابدعه من العدم ، وعلى ضوء علاقة النفس بربها وقد احاطت به كل املها ، والفارس المسيحي بسيده ، ومحاولة الفرد يهفو الى ربه ويتقرب منه بالصلاة والضراعة او الانخراط في تجريدة صليبية ، كل هذه الامور وما اليها ، نماذج واضحة من هذه الفردية الاوروبية التي راحت تتجلى في مظاهر شتى من طلب العلم والبحث عنه والابداع ، والتطور .

هكذا تولت اوروبا مهمة كتابة تاريخ العالم وقيادته . فحاول الاوروبيون نشر المسيحية وتمدين العالم وايلاءه طابعاً اوروبياً . فجاءت النتائج على غير استواء . فاذا ما ضربنا صفحاً عن القارة السوداء حيث بقيت محاولاتهم ضيقة الحدود ، محدودة الاثر واستعملوها كمعين لهم لا ينضب لمدهم بما يحتاجون اليه من الارقاء لاستثماراتهم الطائلة في اميركا ، فقد حققوا بعض النجاح في هذه المناطق الاميركية حيث قامت جماعات متحضرة تعاطى اقوامها الزراعة في

الادوار النحاسية والبرونزية انتظموا خلالها دولاً وحكومات نأت عن الحضارة الاوروبيـــة لتكون بنأى من سيطرتها وتفوقها ، قريبة منها بالقدر اللازم، مع ذلك ، لتقبس منها ما ترغب في اقتباسه . اما المناطق التي وجد فيها الاوروبيون انفسهم وجهاً لوجه مع قبـــائل يتعاطى اقوامها جني الاثمـــار ويحترفون الصيد والقنص والفلاحة البدائية فقد شهدت من مآسي المذابح والاستباحات وصنوف الابتزاز ما فتّ في عضد تلك السيادات المحلية . اما في آسيا وافريقيا حيث وجد الاوروبيون حضارات تعود للعصر الحديدي ، تختلف كلياً عن الحضارة التي تمت لهم كالحضارة الاسلامية وغيرها من حضارات الهند والصين مثلاً ، عرفت نُظُم الملكية واقامت نوعاً من البنيان الاجتماعي ونظرت الى الكون بمنظار يختلف عما تم لأوروبا منـه ، او كانت على مستوى حضاري لم تشعر معه بتفوق الاوروبيين الظاهر، فقد جاء انتشار المسيحية فيهاوتغلغل الحضارة الاوروبية بين ارجائها ،سطحياً. فلم تدخل هذه الحضارات تغييراً جذرياً على اوضاعها القائمة. فآسيا الموسمية التي كان الفرد فيها يشعر على الخصوص ، بوطأة الطبيعـة المرزحـــة ، ويئن من جشع بعض المجتمعـات البشرية البغيض ، ويصطدم بمذاهب فكرية ونظريات فلسفية دينية لا يهمها الا المطلق ، وتستنكف بازدراء وأنفة عن درس العالم الخارجي الذي لم يكن في نظرها سوى انسراب لا نهاية له ولا حـد لمظاهر غرّارة متغيرة دوماً ، فكان اخذهـا باسباب التطور والتحول ، دون ما كان عليه في اوروبا بكثير . وقد برهن الآسيويون عن ان القدرة على التطور والاستعداد للأخذ باسبابه ومسبباتـه لم تكن لتنقصهم قط . فقـد ارتفع بعضهم وسما فريق منهم الى افكار ونظريات ، سجل الوصول اليها تحرراً للفرد كما تم لطبقة السيخ في الهنـد بعد ان تبينوا وادركوا ان محبة الله بالروح والحق المتجلية باعمال البر والتقى ، تحرر من النظام الطبقي والفرائض المرزحة التي وجد الانسان نفسه يرسف فيها . فالصيني وانغ – يانغ – منغ رأى ان كل انسان عالماً كان ام جاهلاً ، ثرياً كان او فقيراً ، ذكياً او متبلد الذهن ، يملك في ذاته ، وتكتنفه سريرته ، مبدأ الخير والشر ومبدأ التكمل النفسي ، وفيه القدرة على ابـــداء رأيه في قيمـة الاعمال التي يترتب على المرء القيام بها ، وهكذا يجد نفسه في النهاية متحرزاً من التقاليد والاعراف العائلية ، ومن تعاليم قدامى الكتاب ووصاياهم ، ومـــن ضواغط العادات المستبدة ، كذلك هؤلاء اليابانيون مـن اتباع بوذية زن فهم يتوقعون كل شيء من التفكير الشخصي في العالم وفي المجتمع ، بعد ان ينطلقوا من ترهات هذه الدنيا وامورها ليصلوا بانفسهم الى معرفة المطلق ،مدرسة الاستقلال والفردية . كل هذه المظاهر ،مهما كانت إفرادية ومحدودة تثبت بوضوح وجلاء بالرغم من كل الفوارق التي تبقى مع ذلك ثانوية ، هذه الفوارق التي تقوم على العرف والمناخ وحدثان التاريخ ومجرياته ،ووحدة الجنس البشري. غير ان آسيا باعراضها الموقت عن المسيحية وضربها كشحاً عن المدنية الغربية وعما يكنانه في زاقمها المتحيز من شمول وقيم صالحة ابداً للناس اجمع ، في كل زمان ومكان، تكون قد تخلت لاوروبا عن مهمة قيادة البشرية كما تكون تخلت لها ايضاً ، عن الطاقة الهائلة الكامنة في هذه التقنيات ، وفتحت امامهـــا على مصراعيها ، ابواب السيطرة والسؤدد على العالم ، والتحكم بالتالي ، بمقدراته ومصائره .